احیاء و نشر اللغة العربیة فی باکستان العوائق و المشاکل و حلها

الدکتور عبد الکبیر محسن☆

In this dialogue, the arrival of Arabic language in sub-continent, the different phases it has gone through have been discussed. The reasons for its success and downfall in area have also been examined. In this regard, the drawbacks in its current syllabus and the teaching methods have also been pointed out and suggestions for its improvements have also been made. In the current scenario, it has been hoped that Arabic language is progressing gradually. Especially, with the establishment of Islamic universities and establishment of Arabic Departments in other universities in which MA degree is being awarded to students have also played its role in the development of the language. In these institutions, during examinations on MA level, answers of almost half of questions in Arabic language have been made must which make the language go ahead.

مرت اللغة العربیة بأطوار مختلفة فی بلاد شبه قارة باکستان و الهند و طرأت علیها أوضاع متنوعة و کان لها شأن فی کل عصر من العصور السیاسیة للبلاد، نهضت فی بعضها و أصابها داء الضعف و الخمول فی بعضها الأخری و الأسباب فی ذلك متعددة نذکر بعضها فی هذا المقال الموجز

کان دخول العربیة إلی هذه البلاد فی زمن متوغل فی القدم علی أیدی التجار العرب الذین بدأوا رحلاتهم التجاریة فی الأزمنة القدیمة و مما یدل علی أن أهل الهند أیضا کانوا یرحلون إلی بلاد العرب قولُ سیدنا الرسول ﷺ واصفا سیدنا موسی علیه السلام فی حدیث المعراج : و أما موسی فآدم سبط کأنه من رجال الزط(۱) و ذکر البلاذری الزط من القبائل الأجنبیة التی سکنت بعض بلاد العرب من أهل الهند (۲) و یری سید سلیمان الندوی أن الزط تعریب: جت و هی عائلة معروفة فی شبه القارة (۳) ، ذکر الطبری أن وفد بنی الحارث بن کعب لما جاء إلی رسول الله ﷺ قال: من هؤلاء ؟ کأنهم رجال الهند (٤) هذا یوحی بأنه ﷺ رأی بعض أهل الهند فی مکة ولیس عجیباًأن الوثنیة کانت ظاهرة مشترکة بینهم و بین مشرکی العرب فلا استبعاد أن یکونوا یأتون إلی مکة حاجین الأصنام الموجودة فی الکعبة للعرب کما یثبته غلام علی آزاد بلجرامی (٥) و لذا کانت أشکالهم و أزیائهم معروفة لدی العرب

هذا التبادل و تلك الرحلات التجاریة سببت دخول و استقرار کثیر من مفرادت اللغة العربیة فی لغات شبه

☆أستاذ اللغة العربیة کلیة أصغر مال الحکومیة راولبندی

القارة و حتى الآن لها وجود فيها و قد زحف المسلمون إلى الهند بعد تأسيس دولة الإسلام بالمدينة المنورة و أسسوا دويلات إسلامية عربية فى المناطق التى تشكل باكستان حالياً (٦) جاء أول جيش إسلامى عام ٩٢ هـ و فتح خضدار و غيرها من مناطق بلوشستان (إقليم باكستان) فتوسع نطاق العربية و بدأ إقبال المواطنين على تعلمها بدوافع سياسية و علمية و اقتصادية ولم يمض زمن طويل إلا و وجدت العربية حظا وافرا منهم فى معرض التأليف و الإنتاج العلمى و الأدبى

تعايشت العربية مع بقية لغات شبه القارة جنباً إلى جنب و إن ظلت متقلصة أكثر الأحايين فى دوائر الخواص ولم تتسرب إلى حلقات العوام و مجالسهم ولم تصبح لغة التحاور ولم تكسب الشعبية

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو، لماذا لم تنل العربية مكانةً نالتها فى البلدان الأخرى المفتوحة على أيدى مسلمى العرب مثل الشام و مصر والعراق والأندلس فى حين أنهم فتحوا الأندلس فى نفس الزمن الذى فتحوا فيه بلاد السند و البنجاب؟

أما ما يتعلق بالشام و العراق فاكتسبت العربية الشعبية بسهولة و يسر لأن العرب كان لهم دوران و جولان فيهما بصورة موسعة لاتصال حدودهما بحدود جزيرة العرب ولكن مصر والأندلس أيضا أصبحتا منطقتين عربيتين- مصر لا تزال عربية- حيث شاعت العربية فيهما و تمتعت بثقة الشعب الذى اتخذها لغة تحاوره وانقرضت اللغة المحلية أو ضئلت ولكن الأمر مختلف تماما فى الهند حيث لم تُتخذ لغة شعبية فى أى عصر من العصور وحتى اليوم لها نفس الظاهرة فإنها لا تتحاور بها الألسنة ولا تجرى حتى على ألسنة عارفيها و علمائها إلا بضع كلمات على الأغلب الأعم، وفيما يلى ذكر أهم الأسباب و العوائق التى جعلتها مقصورة فى الحلقات الخاصة ومحدودة الشيوع و الجريان على الألسنة :

١ ـ البلاد التى ضرب بها المثل سكنها و استوطنها كثير من أبناء العربية المخلص الذين انتشروا فى أكنافها و أصبحوا العنصر الغالب أو البارز فيها حتى كان لهم شبه تجمع فى العراق و الشام و مصر خاصة كما أن كثيرا من القبائل العربية هجروا إليها أوطانهم رغبة فى تحسين وضعهم الاقتصادى و تشوفاً إلى بلاد جديدة فتحت عليهم وهكذا كثر عدد الساكنين فى الأندلس من العرب الذين رحلوا إليها جماعات و فرادىٰ و كل ذلك ساعد فى توطيد دعائم العربية فيها أما الهند فلم مركز توجه العرب فلم يفدوا إليها بكثرة كما وفدوا إلى البلدان المفتوحة الأخرى و ربما سبب ذلك بعدها عن عقر دارهم

٢ ـ كان لإنشاء حكومات عربية فى البلدان المذكورة و بقائها مدة طويلة و فى أكثرها حتى اليوم، دور فى نشر العربية و تثبيت قوائمها فى حين أن الحكومات العربية فى شبه القارة سرعان ما استبدلت بحكومات عناصر مسلمة من جنسيات غير عربية

٣ ـ و من تلك الأسباب أن البلاد المذكورة لم تكن فيها قبل قدوم العربية إلا لغة واحدة على الأغلب ولما جاءت العربية كلغة الفاتحين لم تجد مزاحمة أو منافسة تذكر و الحال يختلف تماما فى بلادنا نحن

فاللغات كانت كثيرة ثم العناصر الجنسية الموجودة فيها كانت تنتمي إلى قبائل مختلفة عن العرب في الثقافة و اللغة و الآداب الاجتماعية كما أن الحكم العربي الذي كان محدودا في بعض مناطق بلوشستان و السند سقط بعد ثلاثة قرون من إنشائه و ورثت الحكم السلالات و القبائل التي شنت الهجومات على بلاد شبه القارة من جهة شمالها عن طريق ممر خيبر و كان معظمهم حاملي ثقافة فارسية و تركية و ظل حكم هؤلاء باختلاف الأسر و العائلات باقيا إلى مجيء الاستعمار الإنجليزي في أواخر القرن الثاني عشر الهجري و ابتداء التاسع عشر الميلادي و هذا العنصر الأجنبي أيضاً أضاف لغة و ثقافة أخريين إلى اللغات و الثقافات المتعددة المتواجدة من قبل، إذا كانت السلالات الحاكمة قبل الإنجليز عملت على نشر اللغة الفارسية و آدابها و جعلها لغة رسمية للبلاد فيها هو الاستعمار الإنجليزي الآن بدأ بإرساخ لغته و آدابها فنتيجة لذا كان ازواء و تقبض العربية أشد و أفظع

٤ ـ ظهور اللغة الأردية في القرن السابع الهجري وسع الخليج بين العربية و أبناء شبه القارة لأن استغنائهم عن العربية اشتد بظهور حركة الترجمة و التأليف في الموضوعات الدينية و اللغوية باللغتين: الفارسية و الأردية، فغطت هذه الكتب المناهج الدراسية في كل من المدارس الدينية و الكليات الحكومية فأزيت العربية أكثر مما سبق و ظل هذا النمط سائدا إلى يومنا هذا حيث يدرس طلاب العربية كتب فنونها بالفارسية أو بالأردية في معظم الأماكن

٥ ـ من هذه الأسباب أيضا طريقة تدريس العربية فهي قديمة في حد ذاتها و فاشلة في تنمية الذوق العربي في طلابها لأنها تقدم دراسة نظرية لسائر الفنون العربية فالأساتذة يترجمون النصوص أو يشرحون قواعد النحو و الصرف شرحا نظريا دون استعمال السبورة و تكاد تنعدم التدريبات التطبيقية فثمرة هذه الطريقة طلاب لا يقدرون على التحاور بالعربية بطلاقة و إن كانت معلوماتهم عن قواعدها و بلاغتها كثيرة و من هنا شبههم الشاعر الحكيم العلامة محمد إقبال بقارون في شعره التالي: فقيه شهر هے قارون لغت هائے حجازی کا

و كان الشيخ أبو الحسن علي الندوي يقول إننا نخرّج مهرة الكتب لا مهرة الفنون، فهل سبب ذلك عدم التشجيع أو الخوف الذي لا يفسّر أم ماذا؟ لعل الإجابة صعبة، ظني أن السبب الحقيقي لذلك هو أنهم لا يهدفون بدراستهم العربية إلى أن يتحاوروا بها و كم سمعت من أساتذة و علماء المدارس الدينية بأن التحدث بالعربية و التحاور بها ليس هدفنا،إنما ندرس العربية لفهم الكتاب و السنة كأن العربية وسيلة لديهم لا غاية، فنتجت من هذه الفكرة أن العربية هنا لا تعلّم كما تعلم لغات أخرى إنما تترجم كتبها و تشرح و شتان ما بين تعليم لغة و بين تدريس كتاب أو كتب بها، دراسة العربية مفروضة على طلاب المدارس الحكومية بدءاً من الصف السادس إلى الثامن أي ثلاث سنوات ثم هناك وجود لها في بقية المراحل في صورة مادة اختيارية و بالإضافة إلى هذا هناك أقسام اللغة العربية في سائر الجامعات الحكومية وهذا دليل على اهتمام باكستان ـ حكومة و شعبا ـ بلسان القرآن ولكن بسبب بعض النقائص في طريق تدريسها و في مقرراتها لا يؤتى هذا

الاهتمام ثمرته حسب المرام ولا ينتفع بالعربية حق الانتفاع ، إذا كان المجدون من طلابنا ـ في الجامعات الرسمية و المدارس الدينية ـ يختزنون معلومات كثيرة من معارفها و بعضهم حفاظ معاجمها فالضعف أيضا موجود وهو يتمثل في عدم التحدث بها و أرى أن إزالة الضعف ليس عسيرا

٦ ـ آخر أسباب خمول العربية سلوك بعض علماء العربية تجاه العربية و إهمالهم إياها و تعاملهم السيئ مع أساتذتها و هذا البعض يحملون معهم شهادات الدكتوراه في العربية و توصلوا بها إلى مناصب علياء فرجال منهم تمتعوا طيلة حياتهم بالمناصب الإدارية فحرموا العربية من خدماتهم العملية التدريسية و رجال منهم يؤثرون دائما التحدث بالإنجليزية ولم تسمع منهم كلمة قط بالعربية و ظلم على ظلم أنهم يحضرون في لجان اختيار أساتذة العربية كماهري المادة (

هذه العبودية الذهنية حالت بين شيوع العربية في باكستان و حرمتها من اكتساب ثقة الشعب بل ثقة علمائها، نحن إذا أخلصنا الدين للعربية فعلينا مقاومة العبودية للإنجليزية و يجب الاعتزاز بالعربية و كفانا فضلا أننا ندرس و نشتغل بلغة القرآن و صاحبه ﷺ

هذه بعض تلك المشاكل التي تعاني منها العربية في ديارنا و مع هذا إنها قائمة بفضل الله عز وجل و فضل أولاء الناس من أساتذة المدارس الدينية و المعاهد الحكومية الذين لا يألون جهدا لإبقاء العربية إيمانا بأنها من فرائضهم الدينية وهم في هذه السبيل يتحملون طعنات أعداء العربية ويجعلون صدورهم مجنة دون حملاتهم العشواء على العربية

أما حلول هذه المشاكل فتلخص فيما يلي :

١ ـ ضرورة استبدال المقررات القديمة التي لا تنشئ في الطلاب مهارة الكتابة و المحادثة بكتب مألفة على النمط الحديث فهي متوفرة الآن

٢ ـ ضرورة ترك الطريقة التدريسية القديمة و اختيار الطرق الحديثة التي تتمثل في الدراسة التطبيقية و مشاركة الطلاب الأساتذة في سير الدرس و الإكثار من استخدام السبورة و اجتناب تكثيف الحصة بتقديم التعريفات الطويلة النظرية المملة

٣ ـ اختيار خطة سهلة تدريجية لتدريس العربية التي لا تكون مكثفة بالمعلومات و التعريفات ، وقد حاولت وضع خطة تدريسية بهذا الصدد في إحدى مقالاتي (٨) و استعملتها في مكان علي و أجدها مفيدة و مثمرة بحمد الله و أود أن أصف بعض جوانبها موجزا فيما يأتي :

نبدأ باللفظ و تعرفه على طلابنا بأقسامه الثلاثة بادئين بالحرف ـ فالحروف محدودة مابين أربعين إلى خمسين التي تستعمل كثيرا ـ فبعد معرفتها في يوم أو يومين نخلص منها إلى الإسم و تقرر في أذهانهم أن الإسم المفرد لأشياء الكون ـ الذاتي و الصفاتي ـ من مسئوليتهم أخذه وحفظه ، نحن كمعلمين نعرفهم على طريقة تحويله إلى المثنى و الجمع بنوعيه ، ثم ننتقل إلى الفعل و نبدأ بتعريفه و تشريح طريقة صياغته مقررين أن الأساس

فى ذلك هو صيغة : هُوَ ، من الفعل الماضى ، فمنها تتفرع ثمان وعشرون صيغة للماضى ـ المعلوم و المجهول ـ و نقدم إليهم الإضافات و نثبت أنها تحفظ مرة واحدة ، و هنا يحسن استعمال الضمائر المفصلة مع الصيغ و أن نجعل طلابنايحفظون الإضافات فقط حسب الضمائر فمثلا المعلم يدربهم سائلاً ما إضافة أنا؟ ما إضافة هم؟ و هلم جرا ، و هكذا الفعل المضارع واسم الفاعل و اسم المفعول ولا حاجة إلى تحفيظ كتاب مقرر فى المدارس الدينية : ابواب الصرف و ترديد صرف صغير ولا كبير فلتشرح لهم طريقة الصياغة على السبورة ثم يدربون على صياغة أفعال من مختلف الأبواب ونقرر لهم أن الإضافات واحدة و تتقدم بنفس النمط إلى تدريس قواعد النحو محتنبين التعريفات النظرية الطويلة ، فالعمدة فى كل هذا السبورة ونحاول التركيز على تقريب أذهانهم إلى العربية دون أن ننفرهم عنها بطريقة معقدة كما أن الأحسن تأخير الجزئيات من القواعد إلى حين و نهتم بإجراء المفردات السهلة على ألسنتهم و أقلامهم وندربهم على المهارات الأربعة

وأخيرا أشير إلى أن وضع اللغة العربية فى أيامنا هذه قد تحسن إلى حد ما وهذه الطلاوة الجديدة لهالأسباب آتية :

١ ـ إنشاء الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد التى روجت العربية من جديد و عرفت على طلابها طرقا تدريسية حديثة ألبست العربية ثوبا جديدا ونضرت وجهها

٢ ـ الجهاد الأفغانى فى ثمانينات القرن الماضى الذى استدعى كثيرا من المجاهدين العرب فجاؤوا إلى باكستان وتجمعوا فى إسلام آباد و مناطقها الشمالية و سببوا خلق جو لغوى للعربية التى أظهرت جلوة جديدة للباكستانيين فى الأسواق و الأماكن الشعبية

٣ ـ اهتمام حكومات باكستان فى السنوات الأخيرة بتطوير مناهج و مقررات اللغة العربية فى جميع المراحل

٤ ـ جعل إعداد البحوث فى مرحلة الماجستير أمرا لازما و بالعربية وكان للطلاب من قبل اختيار فى أن يدرسوا بدلا منها مادتين أو أن يكتبوها بالأردية و بذلك نشطت العربية قليلا و صحت من غفوتها وتوسعت دائرة نفوذها وهذا يوحى بمستقبلها اللامع إن شاء الله تعالى

و أخيرا ألفت الأنظار إلى أن هناك ضرورة إلى الاشتراك العلمى بين المدارس الدينية التى تعطى كل اهتمامها للعلوم الدينية و الفنون العربية فحسب ، و بين المدارس والكليات و الجامعات الحكومية التى نسبة العلوم العصرية فى مناهجها أكثر بكثير من علوم الدين فينتج عن ذاك رجال متخصصون فى علوم الدين فقط وآخرون فى علوم عصرية فقط ولذا يتسع البون يوما فيوما بين الفريقين ، أحد الفريقين مقتصر على تعاليم الدين و الثانى على علوم و فنون لا تعينهم إلا على كسب المعاش فالضرورة ماسّة إلى وضع مناهج مشتركة على الأقل إلى مرحلة الثانوية الوسطى ويكون تعليم العربية مادة إجبارية من حيث إنها لغة الدين و بهذا التوفيق بين المسارين يمكن تحقيق بعض ما نريد من أهدافنا بصدد نشر اللغة العربية و ترسيخ قوائمها كما أنها تساعد على تثبيت دعائم الدين الحنيف فى بيئتنا ـ

الحواشی و المراجع

۱۔ انظر: البخاری، محمد بن اسماعیل ، الجامع الصحیح : ۱/ ٤٨٩، نور محمد اصح المطابع کراتشی طبعة ثانیة ۱۹٦۱م

۲۔ انظر : البلاذری، ابو العباس احمد بن یحی ، فتوح البلدان ، ص : ۳۷۳ و ۱٦۲ ، ۱۸٦٦م

۳۔ سلیمان ندوی : عرب و هند کے تعلقات : ٤۰ ، هندوستان اکیڈمی اله آباد ۱۹۳۰م

٤۔ طبری ، ابو جعفر محمد بن جریر، تاریخ الرسل و الملوك: ۲/ ۱۲۷ ، طبعة رابعة ، دار المعارف القاهرة ۱۹۷۹م

٥۔ راجع کتابه: سبحة المرجان فی آثار هندوستان، الفصل الأول ، معهد الدراسات الإسلامیة علیگزه بهارت ۱۹۷٦م

٦۔ اقرأ للتعرف علی هذه الدویلات: هندوستان میں عربوں کی حکومتیں لأبی المعالی اطهر مبارکفوری ، مطبعة عارفی کراتشی ۱۹٦۷م

۷۔ التوبة : ۱۲۲

۸۔ نشر فی مجلة : محدث شهریة ، ینایر ۲۰۰٥م